الفصل السادس

الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط

obeikan.com

مشاورات إقامة الدولة اليهودية:

كان الأمريكيون يرون العالم الإسلامي متفسخا وأقل شأنا، كما كان صناع السياسة من هاري ترومان إلى جورج بوش يرون الطموحات العربية لتقرير المصير بدائية سياسيا، ومريبة اقتصاديا وعبثية أيديولوجيا. في الوقت نفسه كان الرواد الصهاينة الأوائل يعملون بإصرار على تحويل حلم الدولة اليهودية إلى حقيقة في الشرق الأوسط بالدم والعرق والدموع، وسرعان ما جعل الحلم والحقيقة الأمريكيين يتخلون عن بقايا معاداة السامية ليعتبروا أبناء "إسحاق"، الذين أصبحوا الآن غربيين أكثر منهم شرقيين، حلفاء إستراتيجيين في مواجهة أمريكا التي تزداد بشاعة مع أبناء "إسماعيل"، فالإلمام الأمريكي الواسع بالعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر يبدو أنه نشر كراهية أشد عندما تمرد اليونانيون على الحكم التركي لأراضيهم في عام ١٨٢١، ووصفت نورث أمريكان ريفيو ـ North American Review ـ المجلة واسعة الانتشار هذا النضال بأنه كان حرب الهلال ضد الصليب. لقد بدأ الشرق الأوسط في الظهور على نحو أكثر وضوحا في الأفق الدبلوماسي والثقافي الأمريكي فيما يدعوه مارك توين "العصر الذهبي"، ليس لأن البعثات التبشيرية الأمريكية كانت تحاول إنقاذ المزيد من الأرواح فحسب، وإنما لأن التجار الأمريكيين كانوا يحاولون أيضا توسيع نطاق التجارة. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، كان التجار الأمريكيون يشترون نصف محصول أفيون تركيا تقريبا لإعادة بيعه في الصين، وتزويد

الإمبراطورية العثمانية بكل ما تحتاج إليه من السفن الحربية إلى الكيروسين، ففي عام ١٨٧٩، كان أحد الدبلوماسيين الأمريكيين يتباهى قائلا: "حتى المصابيح المعلقة في الأماكن المقدسة في مكة كانت تعتمد على زيت بنسلفانيا". في الوقت نفسه، كان جيل جديد من المبشرين الأمريكيين يشق طريقه إلى أرمينيا وسوريا ومناطق أخرى من العالم العثماني ينشر الإنجيل، ومعه أفكار العالم الجديد الانقلابية، وإذا كان روزفلت قد وضع مصر عند أسفل التراتبية العرقية، فإنه وضع اليهود بالقرب من القمة. ولاشك في أنه مثل معظم النخب الأرستقراطية التي كان ما تزال تحكم أمريكا عند منعطف القرن، كانت تحكم نظرية بعض الصور النمطية الهجومية للأمريكيين اليهود، ولكنه كان شديد الانتقاد أيضا لموجه معادة السامية التي كانت تجتاح تركيا وروسيا أثناء الحرب العالمية الأولى، كما كان من أوائل المؤيدين لفكرة إنشاء دولة يهودية في الأرض المقدسة، وفي يوليو عام ١٩١٨، كان يرى أن الولايات المتحدة وحلفاءها ينبغي أن يتعهدوا ألا يعقدوا سلاما إلا بعد طرد الأتراك من أوروبا وأن يتَمكن اليهود من فلسطين، وبعد شهرين كان يضيف إلى ما سبقه، أنه يبدو من الملائم تماما الشروع في إقامة دولة صهيونية حول القدس.

كان إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين قد أصبح هدفا يشارك فيه كلا جانبي الأطلنطي، كانت فلسطين المشهورة أساسا بآثارها الدينية وصادراتها من الفاكهة قد ظلت إلى وقت قريب أكثر قليلا من مجرد منطقة هادئة منعزلة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية المحتضرة. بين أغلبية مسلمة، كان هناك ما يقرب من خمسة وعشرين ألف يهودي من التعداد الكلي الذي يصل إلى ثلاثمائة ألف نسمة في عام ١٨٨٠، بعد خمسة عشر عاما، نشر تيودور هرتزل (وهو يهودي من مواليد بودابست، عمل بالمحاماة ثم تحول إلى الصحافة وكان في الخامسة والثلاثين من العمر) ما يمكن اعتباره أول بيان صهيوني. غاضبا بسبب المذابح في روسيا وبولندا ومروعا لامتداد موجة معاداة السامِيَة غربا في فرنسا، كان

هرتزل ينبه إخوانه على صفحات "الدولة اليهودية" إلى أنهم بإنشاء وطن قومي في فلسطين، يمكنهم فقط أن يكونوا في مأمن من الاضطهاد. عاملا دون كلل، استطاع أن يجمع عددا من اليهود من ١٧ دولة بما فيها الولايات المتحدة والبرازيل وسويسرا ليؤسسوا في أغسطس ١٨٩٧ "المنظمة اليهودية العالمية" بهدف محدد وهو تسريع عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين بشراء الأراضي من العرب، وسرعان ما أثمرت الجهود الصهيونية التي ساعدت على زيادة المجتمع اليهودي في فلسطين إلى ٨٥ ألف نسمة، أي ما يعادل ١٢٪ من التعداد الكلي عشية الحرب العالمية الأولى. وقبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب في أبريل ١٩١٧، كان لويس برإنديز الإصلاحي خريج هارفارد الذي عينه ويلسون ليكون أول قاضٍ يهودي في المحكمة العليا، قد نقل إلى البيت الأبيض لأهداف الصهيونية في فلسطين، وعلى الشاطئ الآخر من الأطلنطي كان كيميائي لامع وقيادي صهيوني بريطاني هو حاييم وايزمان في لندن يدفع آرثر بلفور وزير خارجية المملكة المتحدة للمصادقة على فكرة الدولة اليهودية عندما كانت القوات البريطانية تصارع لانتزاع السيادة على فلسطين من يد الأتراك العثمانيين. وخشية أن تتبنى الحكومة الألمانية الحركة الصهيونية في محاولة للتقليل من دعم المجهود الحربي للتحالف بين اليهود البريطانيين والروسي والأمريكيين، أعد وايت هول ـ Whate Hall ـ مسودة ما أصبح يعرف بـ"تصريح بلفور" ليكون واحدا من أشهر الصياغات الملتبسة والمتناقضة في تاريخ الكتابة، "إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى". قبل إصدار تصريح بلفور، طلبت الحكومة البريطانية مباركة الأمريكيين. لم تكن الولايات المتحدة رسميا في حالة حرب مع

الإمبراطورية العثمانية، ولم يكن ويلسون مستعدا لأن القوات الأمريكية المتورطة فيما كان يبدو مؤكدا أنه سيكون نزاعا ثلاثي الأطراف بين الأتراك والعرب واليهود إلا أنه عندما تحقق من أن البريطانيين كانوا يقصدون أن يكون تصريح بلفور إعلان مبادئ أكثر منه وصفه لسياسات محددة، أرسل ويلسون كلمة عبر الأطلنطي تفيد أنه موافق على الصيغة المقترحة من الضفة الأخرى. وبعد شعور بالارتياح للحصول على موافقة الولايات المتحدة كشف وزير خارجية بريطانيا عن أسلوب تناول بريطانيا الجديد لمسألة فلسطين، في الثاني من نوفمبر من عام ١٩١٧، وذلك في رسالة إلى اللورد ليونيل وولتر روتشيلد الذي كان قد تحول حديثا إلى الصهيونية ويعمل على نحو وثيق مع كل من وايزمان وبرإنديز(١).

اللوبي الإسرائيلي:

أشهر ما في الكونجرس اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة (التي تعرف اختصارا إيباك بالإنجليزية). فما أن يذكر هذا الاسم أمام أي شخص في الكابتول هيل "مبنى الكونجرس في واشنطن" ممن يقومون بسياسات الشرق الأوسط، حتى يتجهم وجهه، فإيباك هي صاحبة السلطة الغالبة بين المجموعات الضاغطة "اللوبيات" في واشنطن. وإيباك تعرف أحيانا ما يقوله أعضاء الكونجرس عن سياسات الشرق الأوسط حتى في الأحاديث الخاصة، ومن ينتقد إسرائيل إنما يعرض مكانته السياسية للخطر، وليست إيباك سوى جزء من اللوبي الإسرائيلي، بيد أنها من ناحية التأثير المباشر على السياسة العامة هي الأهم، فقد عمقت ووسعت نفوذها وهي تتحكم فعلا بكل تصرفات الكابتول هيل بشأن السياسة الشرق أوسطية، ويكاد جميع أعضاء مجلس الشيوخ والنواب يطيعون بلا استثناء أوامر هذه اللجنة، لأن معظمهم يعتبر إيباك الممثلة المباشرة للكابتول هيل وذات القدرة السياسية التي تتيح أمامهم فرص النجاح في الانتخابات أو تقضي عليها. والمهم بالفعل هو الصورة المطبوعة في الأذهان عن إيباك سواء بناء على الواقع أو الخيال. فإيباك أصبحت مرادفا للسلطة. السلطة

الباغية المرعبة- وتردد منشوراتها الدعائية كلمة المديح التي نشرتها عنها النيويورك تايمز حين قالت: إنها أقوى التجمعات ذات المصلحة المشتركة في السياسة الخارجية وأحسنها إدارة وأكثرها نفوذا في واشنطن. وقال النائب السابق بول ن. "بيت" ماكلوسكي بصراحة أكثر أن إيباك ترهب الكونجرس ولا أحد غيره من النواب كان في مثل صراحته، ولكن الكثيرين في مجلس النواب والشيوخ يتفقون معه سرا على هذا الرأي. ومن الناحية الفعلية فإن تجمعات اللوبي هي امتداد للحكومة الإسرائيلية، وقد اتضح ذلك عام ١٩٨١، عندما وزعت إيباك على أعضاء الكونجرس بيانا رسميا تدافع فيه عن قيام إسرائيل بقصف المفاعل الذري العراقي قبل ساعة من إصدار رئيس وزراء إسرائيل البيان نفسه. ولا تجادل أية منظمة يهودية رئيسية في الالتزام علانية بالمواقف والسياسات التي تعتمدها إسرائيل. فحدث مثلا أن تكلم توماس أ. داين، مدير إيباك التنفيذي بحماسة عن خطة الرئيس ريغان للسلام عندما أعلنت في شهر سبتمبر من عام ١٩٨٢، ولكن حالما رفضتها إسرائيل لزم داين الصمت. ونشاط اللوبي في واشنطن مجهود خطير الشأن بالنسبة إلى المنظمات اليهودية التي تتطلع بازدياد لقيادة إيباك. ويحدد ميثاق إيباك غايتها بالعمل التشريعي، إلا أنها تمثل أيضا مصالح إسرائيل، حيث يتبين أن ثمة تحديات لهذه المصالح في وسائل الإعلام والفئات الدينية والكليات الأمريكية، أو في أي مكان. وبما أن موظفي إيباك يقبضون رواتبهم من تبرعات مواطنين أمريكيين فإنهم يعفون من التسجيل بموجد قانون تسجيل الوكلاء الأجانب، مع أنهم في الواقع يقومون بوظيفة العملاء الأجانب. وبمرور السنين تغلغل اللوبي الموالي لإسرائيل تماما في نظام الحكم بكامله، وإيباك هي التي تركت أعمق انطباع، وحتى رئيس الولايات المتحدة يلجأ إليها كلما واجهته مشكلة سياسية معقدة لها علاقة بالنزاع العربي الإسرائيلي. وتشعر مراكز القوة فيما وراء المكتب الرئاسي بنفوذ "مدير الإيباك" فهو يتلقى مكالمات من المرشحين للرئاسة ومن الرؤساء، ومعظم إجراءات الكونجرس المتصلة بالسياسة الشرق أوسطية هي إما من

وضع إيباك أو بموافقتها. ويستخدم مدير الإيباك فريقا من المحترفين الأكفاء المندفعين ويحافظ على تعاملهم معا بوئام، وذلك تحقيقا للمآثر من أجل إسرائيل، وبالتعاون أحيانا من رئيس الولايات المتحدة وأحيانا أخرى بدونه. ويحتفظ مدير الإيباك بخطوط سياسية واضحة، وبمجندين منضبطين. ويقتصر دور إيباك على دعم سياسات إسرائيل دون صياغتها، لذلك فإن إيباك على اتصال هاتفي يومي مع السفارة الإسرائيلية كما أن مديرا يجتمع شخصيا بمسؤولي السفارة مرة على الأقل في الأسبوع، والاجتماعات التي يعقدها الأعضاء سنويا في واشنطن هي الوسيلة الأولى لحشد المجندين، ويستمع الحضور إلى كلمات من شخصيات أمريكية إسرائيلية بارزة، ويشاركون في ندوات وحلقات دراسية وعملية ويتبرعون بالمال للقضية. وتنظم الهيئات اليهودية الأخرى رحلات إلى إسرائيل تساعد على إنشاء قاعدة شعبية لبرنامج إيباك. وتنظم أيضا رحلات للزعماء من جميع أنحاء البلاد، وخاصة لأولئك الذين في الكابتول هيل. ومع أن إيباك لا تتولى بنفسها هذه الرحلات، فإنها تسهل أمرها، ولقد نجحت إيباك في أبعاد المشرعين الأمريكيين عن زيارة البلدان العربية بقدر نجاحها في عرض وجهات نظر إسرائيل دون سواها. كذلك لا تنتصر إيباك لقضايا إسرائيل في الولايات المتحدة فحسب بل ولمطامعها الدولية أيضا[٢].

سياسة الاحتواء وأزمة السويس:

انجذبت أمريكا إلى الشرق الأوسط بسبب نظرية الاحتواء التي تطلبت أن تكون هناك معارضة للتوسع السوفيتي في كل منطقة في العالم، وكذلك بسبب مبدأ الأمن الجماعي الذي شجع على إنشاء منظمات مثل حلف الأطلنطي لمقاومة التهديدات العسكرية الفعلية أو الممكن حدوثها. ولم تشارك بلدان الشرق الأوسط في معظم الأحوال أمريكا في آرائها الإستراتيجية. وكانت بريطانيا أول من اضطر إلى التخلي عن أوهامها بشأن الشرق الأوسط، فقد كانت قاعدتها العسكرية في قناة السويس واحدة من أواخر المراكز الاستعمارية التي يحميها أكثر

من ٨٠ ألف جندي بريطاني، ومع ذلك، فإن بريطانيا لم تكن في موقف يتيح لها أن تحتفظ بقوات ضخمة في منطقة القناة في مواجهة المعارضة المصرية وبدون تأييد من الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٥٤، وافقت بريطانيا إذعانا لضغط من الولايات المتحدة على سحب قواتها من قاعدة السويس في عام ١٩٥٦. كان القادة الأمريكيون يحاولون الدمج بين سياستين لا يوجد أي تناسق بينهما، وذلك لإنهاء دور بريطانيا الاستعماري باستغلال بقايا النفوذ البريطاني لإقامة بنية لسياسة الاحتواء في الشرق الأوسط. وقد وضعت إدارة الرئيس الأمريكي أيزنهاور مفهوم الحزام الشمالي ـ المكون من تركيا والعراق وسوريا وباكستان على أن تكون إيران شريكا محتملا فيها بعد. وتلك صورة لحلف الأطلنطي في الشرق الأوسط، والهدف منها احتواء الاتحاد السوفيتي عند حدوده الجنوبية. وقد أسفر هذا المفهوم عن ثماره في حلف بغداد الذي رعته بريطانيا ولكن ثبت في مناسبات عدة أنه حلف متصدع. فلكي يكون الحلف فعالا، فيجب أن يعكس غرضا مشتركا من نوع ما بين أعضائه، وأن يعبر عن مفهوم يتعلق بخطر مشترك من نوع ما بين أعضائه، وأن يعبر عن مفهوم يتعلق بخطر مشترك أيضا والقدرة على تجميع القوة في الوقت المناسب. ولم تنطبق أي من تلك المبادئ على حلف بغداد. لقد كانت الانقسامات والعداوات بين بلدان المنطقة أكبر من خوفهم المشترك من التوسع السوفيتي. وفي ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد وصلتا إلى حالة من الخلاف الشديد حول عدد من القضايا. فرغم أن دالاس كان يحبذ سياسة الحزام الشمالي، فقد ضايقه أن بريطانيا تولت قيادة دول هذا الحزام، وكان يريد لحلف بغداد أن يتركز على مصر والتي بدورها اعترضت على الحلف بكل قوة. وكانت بريطانيا تفضل لو أنها أطاحت بعبد الناصر، أما أمريكا فرغم أنها لم تكن مرتاحة لصفقة الأسلحة التشيكية لمصر إلا أنها رأت أنه من الحكمة أن تسترضيه. وفي لهفتهم لاستعادة وحدتهم التي تمزقت، حوّل القادة الأمريكيون والبريطانيون اهتمامهم بعد ذلك إلى مشروع بناء السد العالي: وهو

بناء يبلغ ارتفاع ٣٦٥ قدما وطوله ثلاثة أميال، يقام في منطقة مصر العليا على نهر النيل قرب حدود مصر مع السودان. والهدف من المشروع هو التحكم في ري وادي النيل الذي اعتمد عليه كل سكان مصر منذ أزمان بعيدة وسوف يحررهم من الاعتماد سنويا على فيضان نهر النيل. وفي البداية، أثار أنتوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا وعدو عبد الناصر اللدود احتمالات الدعم الأنجلوأمريكي للسد العالي على أن تتحمل أمريكا في ذلك نصيب الأسد (ما يقرب من ٩٠ في المائة من تكاليف بناء السد). ولا يمكن تفسير تحول إيدن - الذي كان يتوق إلى التخلص من عبد الناصر - إلى المؤيد الرئيسي لمشروع السد، إلا على أساس أنه أراد أن ينظر إليه على أنه يتخطى دبلوماسية الشرق الأوسط ويفسد أي محاولة سوفيتية لمتابعة المساعدات العسكرية بالاختراق الاقتصادي. وفي ١٤ من ديسمبر من عام ١٩٥٥، تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا بعرض رسمي لبناء السد على مرحلتين، ووضعت فورا الاعتمادات اللازمة للمرحلة التمهيدية والتي تقرر أنها في خلالها يتم تحديد مدى وطبيعة المساعدة التي ستقدم للمرحلة الثانية التي شملت البناء الفعلي للسد العالي، راح عبد الناصر يفاصل بشدة في الشروط المالية ورفض محاولات الولايات المتحدة للمساعدة في تسهيل المفاوضات العربية الإسرائيلية، وفي ١٦ من مايو من عام ١٩٥٦، سحب عبد الناصر اعترافه بحكومة شيانج كاي شيك رئيس الصين الوطنية، وأقام علاقات دبلوماسية مع جمهورية الصين الشعبية. وفي ١٩ من يوليو من نفس العام، قرر جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت أن يضع حدا لذلك. فلقد كان اعتراف عبد الناصر بالصين الشعبية بمثابة القشة الأخيرة التي أقنعت دالاس بأن يلقنه درسا قاسيا. فعندما عاد السفير المصري من القاهرة إلى واشنطن حاملا تعليمات بقبول مصر كل المقترحات التقنية الأمريكية، رد دالاس قائلا: إن واشنطن خلصت إلى أن مشروع السد العالي يفوق قدرات الاقتصاد المصري، وأن أمريكا لن تقدم لمصر أي مساعدات في هذا الشأن. وأمام جمهور عريض في مدينة الإسكندرية في

٢٦ من يوليو من عام ١٩٥٦، قدم عبد الناصر رده على دالاس معلقا طعنته الخاطفة بنداء إلى القومية العربية: أيها المواطنون.. إن هذه هي المعركة التي نشترك فيها الآن. إنها المعركة ضد الاستعمار وأساليبه وتكتيكه ومعركة ضد إسرائيل طليعة الاستعمار.. إن القومية العربية تتقدم إلى الأمام.. إن القوى العربية تنتصر وتسير قدما.. إن القومية العربية تعرف طريقها وتعرف قوتها.. إن القومية العربية تعرف أعداءها وتعرف أصدقاءها.. وفي تحد مقصود منه قال في الجماهير: "لا يمكننا أن نقول أبدا أن معركة الجزائر ليست معركتنا"، وفي منتصف خطابه ذكر عبد الناصر اسم فرديناند ديليسبس المهندس الفرنسي الذي تولى عملية حفر قناة السويس.. وكان ذكر اسم فرديناند ديليسبس هو كلمة السر التي اتفق من قبل على إنه إذا ذكرها عبد الناصر فتبدأ القوات المصرية في عملية الاستيلاء على هيئة القناة، وقد ساعد ذلك جمال عبد الناصر على أن يعلن في نهاية خطابه للجماهير المفتونة به قائلا: إنه الآن في تلك اللحظة التي أتحدث فيها إليكم بدأ بعض إخواننا المصريين في الاستيلاء على شركة قناة السويس وممتلكاتها والسيطرة على الملاحة في القناة ـ القناة الموجودة في الأراضي المصرية والتي هي جزء من مصر وتملكها مصر[٣].

محمد حسنين هيكل

يستعرض محمد حسنين هيكل في موسوعة كتابه "ملفات السويس"[٤] ما جرى بعد أن ألقى جمال عبد الناصر خطاب التأميم وسوف نعرض نبذات قصيرة بما كتبه. ففي اليوم التالي لإعلان التأميم ـ الجمعة ٢٧ من يوليو ١٩٥٦ ـ كان جمال عبد الناصر يركز على موضوع واحد وهو حركة المرور في قناة السويس، فقد كان يريد أن يطمئن إلى نتائج الإدارة المصرية، وفي يوم السبت ٢٨ من يوليو، قسم جمال عبد الناصر وقته لدراسة

موضوعين: الاحتمالات العسكرية (قرر جمال عبد الناصر ضرورة سحب مجموعة الجيش المصري الرئيسية من سيناء إلى الدلتا لمواجهة احتمالات التدخل) ـ والموقف الاقتصادي على أثر تجميد الودائع والأرصدة المصرية في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

واتصل جمال عبد الناصر بالدكتور محمد فوزي ـ وزير الخارجية ـ يطلب منه إصدار رد على البيان الثلاثي في اجتماع لندن (بين دالاس ولويد وبينو)، وقد ركز على النقاط التالية:

ـ إن مصر لن تقبل أي تدخل خارجي في إجراء يدخل في صميم سيادتها.

ـ وقد تصرفت وفقا لنصوص وروح الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي لا يمكن أن تمنع مصر من تأميم شركة مصرية حتى وإن حمل اسمها مجازا وصف "العالمية".

ـ إن مصر هي المسؤولة عن حماية حرية الملاحة في قناة السويس وليس شركة القناة ولا أي قوة أجنبية.

ـ إن مصر قررت التأميم مرتبطا بمبدأ التعويض.

ـ إن العالم كله يشهد إن الملاحة في القناة تسير بطريقة طبيعية منذ يوم التأميم.

ـ إن مصر لا تكره موظفي شركة القناة السابقة على العمل في إدارة القناة الجديدة.

ـ إذا كان لابد من انعقاد مؤتمر دولي لبث قضية الملاحة في القناة فمن المنطقي

أن ينطبق هذا على كل الممرات المائية في العالم وأولها قناة بنما.

ومضى جمال عبد الناصر خطوة بعد ذلك فقرر أن يكتب لأيزنهاور مباشرة. وربما أراد جمال عبد الناصر أيضا أن يخفف عن جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي الذي كانت كل الأطراف تلقي عليه اللوم في تفجير الأزمة بسبب صياغته الفظة لقرار سحب العرض الأمريكي بالمساهمة في تمويل السد العالي، وكان هذا هو دافع جمال عبد الناصر حين أدلى بتصريح للصحفيين الأمريكيين قال فيه: "إن قرار التأميم كان يراوده منذ سنتين وإنه لم يصدر لمجرد الرد على دالاس". ثم مضى جمال عبد الناصر يفكر في مواجهة مؤتمر لندن القادم، وقد استقر رأيه على كتابة مذكرة باسم الحكومة المصرية تشرح الموقف بكامله وتكون هي الأساس الذي تقوم عليه الجبهة المؤيدة لمصر والتي تضم الاتحاد السوفيتي والهند وإندونيسيا (وربما إسبانيا واليونان من الدول الأوروبية) ثم انتقل جمال عبد الناصر للتفكير في أسلوب العمل وحدده على النحو التالي:

١ - انتظام سير الملاحة في القناة هو السلاح الرئيسي في هذه المرحلة.

٢ - لابد أن تنشط مصر بجهودها المباشرة وبجهود كل الجبهة المؤيدة لها في المؤتمر وفي العالم الغربي وفي العالم كله لشرح وجهة نظرها ولإقناع الكل بالحق المصري في اقتناعهم بالكفاءة المصرية في إدارة القناة.

٣ - يجب الاحتياط أثناء مؤتمر لندن وبعده وأن يتم التعاون إلى أقصى حد ممكن مع الاتحاد السوفيتي بشرط ألا تدخل الأزمة الناشئة عن التأميم في شباك العلاقات بين القوتين العظميين.

٤ - ينبغي العمل على ألا يصل مؤتمر لندن إلى أية قرارات بالإجماع بحيث لا يصدر عنه في النهاية شيء محدد.

٥ ـ يستحسن أن تصل مصر بمساعدة أصدقائها على إطالة مدة المؤتمر لأقصى وقت ممكن فكسب الوقت عامل أساسي.

٦ ـ لابد أن تكون مصر على علم يومي بما يجري في المؤتمر.

تقدم دالاس بمشروع يؤدي في النهاية إلى تدويل قناة السويس تحت ادعاء إبعادها عن سياسة أي بلد واحد، كما ينص على إنشاء هيئة للمنتفعين بقناة السويس تشرف على إدارتها وتتولى تحصيل رسوم المرور فيها. وفي مقابل مشروع دالاس، تقدم الاتحاد السوفيتي بمشروع مضاد شاركت في إعداده بعض الدول الصديقة لمصر. وانقسم المؤتمر وطالت مناقشاته سبعة أيام متواصلة ثم طرح سلوين لويد مشروع دالاس للتصويت (على عكس ما تم التفاهم عليه من إجراءات) ونال ١٨ صوتا وأصبح مشروع الأغلبية. وأما المشروع الآخر فقد أيدته ٥ أصوات وأصبح مشروع الأقلية.

بدا الهجوم الإسرائيلي على سيناء بتقدم اللواء السابع المدرع في اتجاه موقع الكونتيلا. وكان هذا التحرك الإسرائيلي مفاجئا لجمال عبد الناصر ولم ير سببا واضحا يبرره في هذا التوقيت بالذات. فقد كان الموقف على خطوط الهدنة المصرية هادئا طوال الأسابيع الأخيرة. وهكذا بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر عملا غير مفهوم في أهدافه ومقاصده. وفي صباح يوم ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٦، دُعي السفير المصري في لندن والسفير المصري في باريس إلى وزارة الخارجية في كل من العاصمتين لكي يتسلم كل منهما إنذار بريطانيا ـ فرنسيا يطلب إلى كل من مصر وإسرائيل الانسحاب بعيدا عن قناة السويس لمسافة عشرة أميال لأن وجود الجيوش المتحاربة بعيدا عن الممر المائي الحيوي مسألة ضرورية لسلامته ولصالح العالم. ويبدأ شبح التواطؤ ماثلا للعيان، ولكن جمال عبد الناصر كان غير قادر على التصديق ولعله لم يصدق تماما إلا عندما انتهت فترة الإنذار وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار ألماظة الملاصق لبيته. وكان الغزو البريطاني ـ

الفرنسي لمنطقة قناة السويس مأساة لأصحابه منذ البداية وحتى النهاية. كانت أول فجوة مفتوحة في العملية كلها هي أن بريطانيا وفرنسا معا تريدان إثبات استقلال قرارهما عن الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت صاحبة زعامة التحالف الغربي وقيادته كما أنها خزينة تمويله القادرة. وكتب أيزنهاور في مذكراته يقول: من سوء الحظ أن ناصر يدير القناة بطريقة أحسن وأكفأ من الإنجليز والفرنسيين، لذلك فإن تفكير إيدن في استعمال القوة سوف يبدو سخيفا وأكثر من ذلك، فإن أيزنهاور طلب إلى دالاس أن يدعو أبا ايبان السفير الإسرائيلي في واشنطن إلى مكتبه ويبلغه رسالة منه إلى بن جوريون نصها كما يلي طبقا لمذكرات أيزنهاور:

"اذهب وقل لـ لبن جوريون إنه إذا كان يمضي فيما يفعله الآن مطمئنا إلى أنني سوف أسكت مراعاة للأصوات اليهودية في الانتخابات فإنه سوف يكون قد ارتكب خطأ كبيرا. إنني سوف أتصرف وفقا لمصالح الولايات المتحدة سواء فزت في الانتخابات أو خسرت الرئاسة، قل لهم: إن أهدافنا لا تختلف عن أهدافهم ولكن لا أريد أن تتم عملية إزاحة ناصر بوسائل الاستعمار القديمة ووفقا لمصالحه".

لم يكن الشعب المصري وحده في المعركة وإنما كان العالم كله تقريبا معه، كان الغضب ضد المؤامرة على مصر يجتاح القارات والمحيطات، فقد اشتعلت نيران السخط ضد أطراف العدوان الثلاثي على طول المسافة الممتدة من الدار البيضاء إلى دكا، وهوجمت المنشآت والسفارات البريطانية والفرنسية في كل العواصم الأفريقية والآسيوية، وحتى في أمريكا اللاتينية قال فيدل كاسترو، الذي كان لا يزال يحارب الجنرال باتيستا :إن "قوات الثورة الكوبية في ذلك الوقت كانت تشعر أنها تخوض من عن بعد معركة مصر"، وحتى في ذلك الوقت، كان الاتحاد السوفيتي يصدر البيانات ويشارك في مشروع القرارات ويدين العدوان بكل الوسائل لكنه لم يكن قد اتخذ خطوة عملية بعد. وفجأة في مساء ٥ من نوفمبر

١٩٥٦ تحرك الاتحاد السوفيتي وكانت حركته مفاجئة حتى بالنسبة لجمال عبد الناصر. ففي ذلك اليوم دعي القوني (سفير مصر في موسكو)، إلى مقابلة مع وزير الخارجية السوفيتية حيث سلمه نسخة من الإنذار السوفيتي الموجه لبريطانيا وفرنسا ونسخة من الإنذار الموجه إلى إسرائيل. كان الإنذار الموجه إلى كل من بريطانيا وفرنسا "يطالب بوقف العمليات العسكرية فورا وبانسحاب القوات المعتدية دون إبطاء" ويشير بصراحة ووضوح إلى "أن لندن وباريس ليستا بعيدتين عن الصواريخ النووية". وأما الإنذار الموجه إلى إسرائيل فقد اتهمها بأنها "تتصرف إذعانا لإدارة أجنبية ووفقا لأوامر من الخارج وأن حكومة إسرائيل تعبث على نحو إجرامي غير مسؤول بمصير العالم وبمصير شعبها، وتبذر بذور الكراهية لدولة إسرائيل فيما بين الشعوب الشرقية وهو أمر لابد أن يترك آثار على مستقبل إسرائيل ويشكك في وجود إسرائيل ذاته كدولة". كان مجلس الوزراء الإسرائيلي في حالة اجتماع مستمر ثم وصلته أنباء عن إسقاط طائرة بريطانية من طراز كانبيرا فوق الأراضي السورية، وساد الظن بأنه لابد أن تكون هناك في سوريا محطة رادار بدأ السوفيت في تشغيلها. وبعثت وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى مجلس الوزراء المنعقد مجموعة برقيات تضيف نذرا أخرى، فقد أعلن الأتراك أن طائرات سوفيتية تخترق مجالهم الجوي على ارتفاع عال، وأن الروس طلبوا من الحكومة التركية إذنا بدخول خمس قطع بحرية عبر المضايق التركية للبحر الأبيض. واحتدمت المناقشات في مجلس الوزراء الإسرائيلي، وارتفعت الأصوات وتبودلت الاتهامات وأجهش بعد الوزراء في البكاء واضطر رئيس الدولة بن زفاي إلى التوجه عند الفجر إلى اجتماع مجلس الوزراء يطلب سرعة اتخاذ قرار لأن الموقف لا يحتمل الانتظار، وأبلغه بن جوريون أن مجلس الوزراء قرر قبول وقف إطلاق النار وقبول مبدأ الانسحاب من سيناء. ومع نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩٥٦، ساد وقف إطلاق النار على جبهات القتال وفقا لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة. ووفقا لنفس القرارات فقد تقرر أن تجيء إلى مصر قوة طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة لكي

تتولى الإشراف على وقف إطلاق النار ومراقبة عملية انسحاب قوات العدوان، ثم للمرابطة على خطوط الهدنة لمنع تجديد الاشتباكات بين مصر وإسرائيل. ووافق جمال عبد الناصر على فكرة قوات الطوارئ التي اقترحها ليستر بيرسون وزير خارجية كندا. كان باديا لأيزنهاور أن بريطانيا وفرنسا كلتيهما قد فقدا ما كان باقيا لهما في الشرق الأوسط تماما، لم يبق وجود ولم يبق نفوذ ولم يبق بترول. وفيما يتعلق ببريطانيا فإنها لن تعود قادرة على مستقبل الأيام على تعويض ما ضاع منها عندما انكشف تواطؤها مع إسرائيل، وحتى إذا غفر لها أصدقاؤها من الحكام العرب التقليديين فإن شعوبهم لن تسمح لهم بأي نوع من أنواع التعبير عن الصفح أو النسيان. وتحت ضغوط عالمية هائلة واستعداد مصري عسكري تمكن من تعويض كل خسائر الحرب خصوصا في الطيران، بدأت إسرائيل انسحابها من سيناء في أواخر شهر ديسمبر ١٩٥٦. وطمأنها مشروع "مبدأ أيزنهاور" الذي قدمه أيزنهاور رسميا إلى الكونجرس يوم ٥ من يناير ١٩٥٧، ثم سلمتها الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة تؤكد فيها حقها في المرور البري من مضايق العقبة، وأعلنت مصر من طرف واحد ضمانا بحرية الملاحة في قناة السويس على أساس اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨، وانتهت حرب السويس وقد حققت مصر كل طلباتها واستردت كل حقوقها فيما عدا واحد وهو منع إسرائيل من المرور في خليج العقبة(٥).

مفاوضات ما بعد حرب ١٩٦٧:

نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧، وضعت غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية العربية تحت السيطرة الإسرائيلية، وهي تغيرات تمت على الأرض لم يكن صناع السياسة الأمريكية يتوقعون إبطالها بسهولة. ومنذ ٧ من يونيو، كان دين راسك يحذر ليندون جونسون من جموح إسرائيل وبأن مطالبها ستكون كبيرة. وبالرغم من وعيه بطموح إسرائيل فيما يتعلق بالأرض، كان الرئيس يأمل في ألا "يكون هناك أبطال كثيرون ومهزومون كثيرون بقدر الإمكان" وفي وقت لاحق من

اليوم نفسه عاد ليشير إلى أن "اللاجئين لابد أن يكونوا لب التسوية".

كان الإسرائيليون يبدون أكثر تصميما على معاهدات سلام رسمية مع العرب وأنهم لن "يتخلوا عن الضفة الغربية ولا شرم الشيخ بسهولة. حتى قبل توقف القتال، هرب ألوف اللاجئين الفلسطينيين عبر نهر الأردن إلى الضفة الغربية، وبعد أن أصبح وقف إطلاق النار ساريا في ١٠ من يونيو، قامت القوات الإسرائيلية بإجلاء الأسر الفلسطينية وتسوية المساكن بالأرض في القدس الشرقية وغيرها من مدن الضفة الغربية ذات الأهمية الإستراتيجية. محبذا "تقرير المصير" كخيار أفضل من التوسع الإسرائيلي، حذر رسك الرئيس الأمريكي في ١٤ من يونيو ١٩٦٧، من أن تمسك إسرائيل بالأراضي التي احتلتها من شأنه أن يذكي روح الانتقام من أجل استعادتها على مدى السنوات المتبقية من القرن العشرين، ومع نهاية الشهر، أكدت المخابرات المركزية أن "نزوح اللاجئين الجماعي من الضفة الغربية كان مستمرا" سواء "خوفا مما يمكن أن يفعله بهم الإسرائيليون" أو "بسبب إجبار الجنود الإسرائيليين لهم على المغادرة" وكان عدد النازحين حتى ذلك الحين قد وصل إلى ١٣٠ ألف نسمة كما قال الملك حسين. وعلى أمل منع التعنت والنزعة التوسعية الإسرائيلية من إطلاق دورة جديدة من العنف والانتقام والقتال، قدم ليندون جونسون مسودة مشروعه للسلام في ١٩ من يونيو ١٩٦٧. لابد من أن يكون هناك "حق معترف به في الحياة القومية" لكل من الدول، وكذلك "الاستقلال السياسي والسلامة الإقليمية للجميع"، ولكن لابد من أن يكون هناك كذلك "عدل بالنسبة للاجئين"، مضيفا أنه "لن يكون هناك سلام لأي طرف في الشرق الأوسط ما لم يتم تناول هذه المشكلة بروح جديدة.

خلال الشهور الخمسة التالية سيجتهد مستشاروه لتحويل هذه المسودة إلى إجراءات دبلوماسية ملموسة في الأمم المتحدة. كانوا بداية، يتوقعون مقاومة شديدة من العرب الذين قاموا في أواخر أغسطس بإصدار "لاءاتهم الثلاث"

الشهيرة: لا اعتراف ولا تفاوض ولا سلام مع إسرائيل، وذلك في قمتهم في الخرطوم بالسودان، وبالرغم من ذلك، كان كل من جمال عبد الناصر والملك

جمال عبد الناصر والملك حسين

حسين يسربان معلومات على استعداد لتحقيق أهدافهما "بالوسائل السلمية أكثر منها بالوسائل العسكرية". وسرعان ما اتضحت صعوبة الحصول على دعم إسرائيلي لصيغة "الأرض مقابل السلام" التي كان الدبلوماسيون يحاولون التوصل إليها في الأمم المتحدة. وكان وولت روستو يحذر الرئيس ليندون جونسون بأن "إسرائيل مستمرة في سياسة من شأنها أن تؤدي إلى انفجار آخر وليس إلى تسوية سلمية". وعلى ضوء إذعان إسرائيل لصيغة "الأرض مقابل السلام" التي أقرها مجلس الأمن في نوفمبر ١٩٦٧، كانت الأمور تتضح للرئيس الأمريكي، وبعد اجتماعه بالملك حسين وغيره من العرب المعتدلين قام السفير

آرثر جولد بيرج واللورد كارادون زميله البريطاني في الأمم المتحدة بالصياغة اللغوية لما سيصبح القرار ٢٤٢ في منتصف نوفمبر، وكانت كلمة جولدبيرج وكارادون شديدة البراعة دون ذكر إسرائيل بالاسم، فإن مسودة القرار كانت تعترف بالسيادة والسلامة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دول المنطقة، ودون إدانة إسرائيل كمعتدية أكدت المسودة "عدم جواز ضم الأراضي بالحرب"، ودون توضيح لكل التفاصيل دعت الصياغة إلى "تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين". كان الجزء الأكثر إثارة للجدل عبارة من اثنتي عشرة كلمة تتناول مستقبل الضفة الغربية وغيرها من الممتلكات التي استولت عليها إسرائيل في حرب الأيام الستة. ففي ما كان يبدو لغة مباشرة نسبيا، دعت مسودة القرار لـ"انسحاب القوات الإسرائيلية من أراضٍ محتلة في الصراع الأخير"مقتنعين بأن إسرائيل لن تقبل العودة إلى الوضع الذي كان قائما قبل الحرب، اقترح العرب إضافة كلمة "كل" أو أداة التعريف "الـ" قبل كلمة "أراضي" وهو ما اعترض عليه الإسرائيليون بشدة.

ريتشارد نيكسون

كان ريتشارد نيكسون قد أصبح ملما بالصراع العربي الإسرائيلي ومركزية القضية الفلسطينية وهو نائب للرئيس. وفي ٩ من ديسمبر ١٩٦٩، كشف وزير الخارجية عن مسودة تسوية عرفت لاحقا باسم "مشروع روجرز". مؤكدا التزام الولايات المتحدة بسياسة "متوازنة وعادلة" تقوم على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ تعهد ليس فقط "بتشجيع العرب على قبول سلام دائم يقوم على اتفاق ملزم، وحث الإسرائيليين على الانسحاب من الأراضي المحتلة" وإنما تعهد أيضا بمحاولة السعي من أجل "تسوية عادلة" لقضية اللاجئين. وأنهى روجرز كلامه بقوله: إن "هناك وعيا

جديدا بين الأجيال الجديدة من الفلسطينيين الذي شبوا منذ ١٩٤٨ في حاجة إلى تحويل وجهته من الشعور بالأسى والإحباط إلى الأمل والعدل". استقبل مشروع روجرز ببرود شديد في إسرائيل، وعندما عرفت جولدا مائير ما كان يدور في ذهن إدارة نيكسون بخصوص الشرق الأوسط طارت إلى واشنطن في سبتمبر ١٩٦٩، وتعهدت بعدم قبول صيغة "الأرض مقابل السلام" ـ سواء كانت مفروضة من الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة أو القوى العظمى ـ التي قد تؤدي إلى إقامة دولة فلسطينية، تراجع نيكسون سريعا عن مشروع روجرز: ليس فقط لأن صيغة "الأرض مقابل السلام" لم تلق قبولا لدى مائير واللوبي الإسرائيلي، وإنما كذلك لأن التسوية الشاملة كانت تسير عكس دبلوماسية "الخطوة خطوة" التي كان يفضلها مستشاره للأمن القومي ـ هنري كيسنجر ـ وبينما كانت مائير تهاجم مشروع روجرز من نيويورك إلى لوس أنجلوس، طار جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية إلى الشرق الأوسط في أبريل ١٩٧٠، حيث استقبله الإسرائيليون ببرود، مع شعور بالارتياح لمعرفة أن مشروع روجرز كان قد ولد ميتا.. وبالفعل لم يكن هناك سلام.. ولم يكن هناك حل[٦].

أجواء حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣:

يستعرض محمد حسنين هيكل في موسوعة كتابه "أكتوبر ٧٣ ـ السلاح والسياسة"[٧] في ثلاثة أجزاء أجواء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ما سبقها وما لحقها. ففي الجزء الثاني: على طريق الحرب وفي الفصل الثالث منه تحت عنوان معجزة البشر تم تسجيل الأحداث العسكرية بصورة مركزه وواقعية. ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ٦ من أكتوبر ١٩٧٣، كانت الأنظار في قاعة العمليات كلها متجهة إلى الجزء الخاص بالقوات الجوية، وكانت الإشارات قد وصلت بأن قوات الضربة الجوية الأولى، وقوامها مائتا طائرة، قد عبرت على ارتفاع منخفض فوق قناة السويس قاصدة إلى تنفيذ المهمة الأولى في العملية. ثم بدأت الإشارات تتراءى بأن طائرات هذه القوة بلغت أهدافها وبدأت تنفذ

مهامها بنجاح فاق ما كان منتظرا. قدم السفير السوفيتي تهنئة القيادة السوفييتية وتهنئته، وسلم رسالة مكتوبة بلغه إنشائية حماسية من الزعيم السوفيتي "ليونيد بريجنيف". وقد عاد الرئيس السادات فكرر ما سبق أن ما قاله لـ"بريجنيف" على التليفون تعبيرًا عن عرفانه بدور الاتحاد السوفيتي في تحقيق "كل هذا النصر العظيم الذي حققناه اليوم".

هنري كيسنجر

كان هنري كيسنجر يتحرك بكل قوة. وقد كان همه الأول ليلة ٧ من أكتوبر (صباح ٧ من أكتوبر بتوقيت القاهرة) أن يمسك بزمام التحركات في الأمم المتحدة بحيث يمنع بحث الأزمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، لأنه كان يخشى من أغلبية دول العالم الثالث الموجودة فيها، ويعتبرها موالية للعرب.

وقد نجح أيضا في تعطيل اجتماع طارئ لمجلس الأمن. فلم يكن يريد لأي تحرك دولي أن يقيد حريته في التصرف إزاء مجريات الأزمة. وكان اعتقاده الراسخ أن إسرائيل سوف ترد الهجوم المصري وسوف تحوله بسرعة إلى هزيمة ساحقة. لكن تقريرا لاحقا من (فورسمان) أعطى صورة مقلقة عن حجم النجاح المصري السوري. فقد ذكر أن خسائر إسرائيل في اليوم الأول قتال هي ٣٥ طائرة. وبعد اجتماعه مع شاليف (القائم بالأعمال الإسرائيلي)، اتصل هنري كيسنجر بالجنرال إلكسندر هيج رئيس أركان البيت الأبيض طالبا نقل رسالة منه إلى الرئيس نيكسون مؤداها (طبقا لمذكرات كيسنجر) أنه إذا انتصر العرب فسوف يكون من المستحيل إجراء أية مفاوضات للوصول إلى حل الأزمة. وأن توصيته كوزير للخارجية هي أن الولايات المتحدة يتعين عليها أن تقدم لإسرائيل ما تحتاج إليه لتعويض

خسائرها، وحتى تتمكن من تثبيت وتصحيح الموقف العسكري بسرعة خلال يومين أو ثلاثة على أقصى تقدير. وقد عاد الجنرال هيج فاتصل بـ"هنري كيسنجر" بعد ربع ساعة وأبلغه أن الرئيس نيكسون وافق على توصيته، وأنه سيتم تبليغ هذه الموافقة إلى وزير الدفاع جيمس شليزنجر، قام هيج باتصال تليفوني مع شليزنجر وأبلغه باسم الرئيس نيكسون أمرا صريحا بسرعة إعداد الطلبات الإسرائيلية، وأضاف إلى ذلك قوله نقلا عن الرئيس: "إن العرب لا ينبغي لهم تحقيق انتصار بأسلحة سوفيتية". وكان ذلك نفس تعبير هنري كيسنجر، وفي نفس اليوم قام هنري كيسنجر بإعطاء تعليماته للوفد الأمريكي في الأمم المتحدة للبدء في اتصالات لعقد جلسة لمجلس الأمن في خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة، فمثل هذا الاجتماع كان أمرا ضروريا ومنطقيا، وكانت الولايات المتحدة هي التي تعرقله حتى تترك لإسرائيل الفرصة لتصحيح الوضع العسكري - والآن وقد بدأت إسرائيل تتلقى كل ما يلزمها، فإن كيسنجر يستطيع أن يقبل انعقاد مجلس الأمن لبحث الأزمة - ولكن بعد أربع وعشرين ساعة من الآن، وفي يوم ١٦ من أكتوبر ٧٣ بواشنطن، دعا كيسنجر إلى اجتماع في البيت الأبيض لمجموعة العمل الخاصة. ولاحظ كيسنجر أن الروح المعنوية لأعضاء مجموعة العمل الخاص وقد تحولت بطريقة سحرية وأصبحت عالية جدا نتيجة وصول التقارير الأولى عن الاختراق الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار. وطلب كيسنجر إلى وزير الدفاع شليزنجر تكثيف شحنات الجسر الجوي العسكري لإسرائيل "لأن حسم الموقف بات قريبا" كما طلب إبلاغ كل المتحدثين الرسميين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية بوقف تصريحاتهم وبياناتهم عن الجسر الجوي لإسرائيل، لأنه يفضل الآن أن تكون لهجة الولايات المتحدة هادئة - Low Key.

وفي صباح يوم ٧ من نوفمبر ٧٣ بالقاهرة، وصل كيسنجر إلى قصر الطاهرة ولقى استقبالا حارا من الجميع، وعلى مائدة الاجتماع، قال كيسنجر للجميع: إنه

"ناقش مع الرئيس السادات مشروعا لفك الارتباط من ست نقاط، وأن الرئيس السادات وافق عليه، وأن مساعده جوزيف سيسكو سوف يذهب إلى السيدة جولداماثير لعرضه عليها والحصول على موافقتها".

لقد خرج الرئيس السادات بعد تجربته في حرب أكتوبر ٧٣ بعدة مقولات:

- إن الصراع العربي- الإسرائيلي نفسي - على الأقل بنسبة ٧٠٪.

- إن حرب أكتوبر هي آخر الحروب.

- إن ٩٩٪ من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط في يد الولايات المتحدة الأمريكية.

- إن موضع وموقع مصر ليس في العالم العربي، وإنما هو في الغرب أو معه بشكل ما في مكان ما.

- إن هناك علاقة خاصة يمكن أن تتوثق بين مصر والولايات المتحدة بالتحديد، وهذه العلاقة يمكن أن تزيد على العلاقة الخاصة بين السعودية والولايات المتحدة، كما أنها يمكن أن تتساوى مع العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة.

وبصرف النظر عما إذا كانت هذه المقولات صحيحة، أو كانت ممكنه بحقائق الأشياء - فإن هذه المقولات كانت لها بالطبع مقتضياتها ونتائجها والآثار المترتبة بالضرورة على هذه المقتضيات والنتائج معا.(٨)

كامب ديفيد والسعي من أجل حكم ذاتي فلسطيني:

الطريق الإسرائيلي العربي المسدود لم يفتحه كارتر ولا بيجين وإنما السادات، الذي حركت زيارته غير المسبوقة للقدس في نوفمبر ١٩٧٧ عملية سلام ستؤدي إلى اتفاقيات "كامب ديفيد" بعد عشرة أشهر. وباعتباره أحد كبار مهندسي حرب أكتوبر، كان السادات يدرك أنه الأوفر حظا لتحقيق أهدافه على طاولة المفاوضات.

السادات أمام الكنيست الإسرائيلي

"جئت إليكم"، كما قال أمام الكنيست الإسرائيلي في ٢٠ من نوفمبر، "لكي نبني معا سلاما دائما يقوم على العدل، لكي نتجنب سفك قطرة دم واحدة من كلا الجانبين" ماذا كان ذلك يعني؟ الإجابة كما قال أيضا: "هي أن تعيش إسرائيل داخل حدودها بين جيرانها العرب في سلام وأمان في إطار كل الضمانات التي تقبلها والمقدمة لها"، ومن جانبها كانت مصر مستعدة للتفاوض من أجل اتفاقية سلام على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ شرط أن تحل إسرائيل مشكلة فلسطين. "لا فائدة من الإحجام عن الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم في إقامة دولة وحقهم في العودة"، كما قال السادات: "ولقد واجهنا نحن العرب هذه التجربة معكم من قبل"، وقال أمام الكنيست: إن مصر وإسرائيل معا لابد من أن يكسرا دائرة العنف وأن "ننتهز هذه الفرصة اليوم من أجل سلام دائم يقوم على العدل".

لقى خطاب السادات استقبالا أكثر حرارة في واشنطن أكثر منه في القدس، فبعد أن عملوا على مدى عقد لتطبيق القرار ٢٤٢، وجد المسؤولون الأمريكيون مؤخرا صيغة "الأرض مقابل السلام" تتجسد في شكل يمكن أن يسوي مسألة اللاجئين مرة وإلى الأبد. كان جيمي كارتر يعزو الجحود الدبلوماسي المتعمق أساسا، لعدم مرونة بيجين، وقال ذلك فعلا في ٢١ من مارس، فقد صرح بكل وضوح بأن "العقبة أمام السلام كانت نية إسرائيل الواضحة للإبقاء على سيطرتها على الضفة الغربية"، وأن "بيجين إذا لم ينتهز هذه الفرصة من أجل السلام فسوف تضيع سريعا". بعد شهور من اللغط المحبط، انتهز كارتر تلك الفرصة بنفسه لدعوة كل من بيجين والسادات إلى قمة شرق أوسطية في "كامب ديفيد" حيث وصل الوفدان المصري والإسرائيلي في ٥ من سبتمبر لبدء أسبوعين تقريبا، من المفاوضات المضنية التي كانت اختبارا عسيرا لإيمان كارتر وجلده، استطاع كارتر بسرعة أن يوصل الجانبين إلى عقد صفقة ثنائية تدعو لانسحاب إسرائيل الكامل من سيناء مقابل اتفاقية سلام رسمية مع مصر، ولكن القمة كانت على وشك الانهيار بسبب خلاف حاد حول مستقبل الضفة الغربية التي كان السادات يرى، أنها لابد من أن تصبح وطنا للفلسطينيين. بعد بدء القمة بثلاثة عشر يوما، استطاع كارتر بالرغم من ذلك أن يتوسط في تسوية اللحظة الأخيرة التي بدت كفيلة بأن تعيد كل طرف إلى بلاده سعيدا نسبيا.

السادات وبيجين وكارتر وتوقيع اتفاقية السلام

وبحلول خريف ٢٠٠٣، دخل الفلسطينيون والإسرائيليون دائرة عنف وانتقام، لم يكن فيها فائز. وبالرغم من أن المسؤولين الأمريكيين كانوا مشغولين على نحو متزايد بحربهم الخاصة في العراق، فإنهم كانوا مصرين على أن المصدر النهائي لخريطة الطريق الفلسطينية الإسرائيلية هو "الأرض مقابل السلام". إن جميع الإدارات الأمريكية من هاري ترومان إلى جورج دبليو بوش كانت مصرة على أن مبادلة الأرض بالسلام يهيئ أفضل الفرص من أجل تسوية دائمة. أن أفق السلام تبدو في بداية الألفية الجديدة أكثر كآبة منها في أي وقت مضى، ومن المؤسف أنه ما لم يستطع الإسرائيليون والفلسطينيون أن يجدوا وسيلة لتنفيذ صيغة "الأرض مقابل السلام" بكل بساطتها، فالمؤكد أن أبناء "إسحاق" وأبناء "إسماعيل" سيواصلون التضحية بحياتهم.[٩]

الحرب الأمريكية على العراق:

يستعرض محمد حسنين هيكل في كتابه "الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق"[١٠] أحداث هذه الحرب. وفي الجزء الخاص بالقوات المسلحة في السياسة الأمريكية وما يتعلق بها من افتتاحية الحرب والمعركة السياسية مع أوروبا، تم استعراض بأن طوال شهور صيف عام ٢٠٠٢، لم يكن ما يجري في واشنطن خافيا على عواصم العالم الكبرى (والصغرى أيضا)، وربما أن بعض التفاصيل كانت غائبة، لكن الخطوط العريضة للنوايا الأمريكية بدت واضحة، كما بدا واضحا أيضا أن العراق ليس الهدف النهائي لمشروع أمريكي إمبراطوري، لكنه افتتاحية البداية. وفي قرار وخطة الحرب، فإنه في يوم الخميس ١٢ من سبتمبر ٢٠٠٢، وقف الرئيس جورج بوش على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة، يلقي بيانه المُنتظر، وكان ملخصه: "إنه إما أن يقبل العراق عودة المفتشين إليه للبحث في موضوع أسلحة الدمار الشامل، والعثور عليها، والخلاص منها نهائيا مع بقاء نظام دائم للرقابة، وإما أنها الحرب، وليس بين الاحتمالين مجال لحل وسط، كما أنه ليس مستعدا لسماع شروط، وإنما طلبه

الوحيد هو الانصياع الكامل بلا قيد ولا تحفظ". وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة العراقية رفضها لطلب الرئيس الأمريكي، مؤكدة في الوقت نفسه أنها لا تملك أسلحة دمار شامل من أي نوع: لا نووية ولا كيماوية ولا بيولوجية. والحقيقة أن كان هناك شبه إجماع دولي على أن العراق فقد قاعدة إمكانياته النووية عندما قامت إسرائيل بتدمير مفاعله "أوزيراك" في غارتها الشهيرة عليه (ربيع ١٩٨١). وكان كثيرون في العالم على قناعة بأن النظام في العراق توصل إلى أن الخيار النووي يتعدى قدراته الراهنة، وكان ذلك أيضا رأي لجنة الطاقة النووية، التي كان رئيسها في ذلك الوقت هو رئيس فريق المفتشين الجدد: الدكتور "هانزبليكس"، لكن منطقة الظل الرمادي ظلت قائمة إلى حد ما في مجال الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، لأن أمرها يحتمل الالتباس، خصوصا أن الرأي العام العالمي -على مستوى المتابعة الإخبارية السريعة- لا يتذكر أن هذه الأنواع من الأسلحة لها مدة صلاحية لا تتجاوزها- إذا لم تتوافر وسائل تجديدها مرة أخرى.

وبدا أن المواجهة السياسية في نيويورك تجرى على عدة مستويات:

- مستوى وفود الدول الكبرى في مجلس الأمن، ومعها الأمانة العامة للأمم المتحدة، وطلب هؤلاء المُلح إعطاء المفتشين الدوليين تفويضا من مجلس الأمن يمنحهم سلطة فوق حكومة العراق ذاتها.

- ومستوى آخر شعب تولاه فكر وإعلام مستنير خصوصا في أوروبا، وساندته قطاعات ضخمة من الرأي العام الدولي- حتى في الولايات المتحدة- لأن الكل يرى نوايا العدوان ظاهرة وبادر إلى إدانتها، بظن أن في الإمكان إيقاف العملية قبل أن تدور تروسها.

- ومستوى ثالث من المواجهة- حشدت فيه الإدارة الأمريكية أقطابها من الإمبراطوريين الجدد- صروحا من الصخر لا تتأثر، وتطل على ما ترى أمامها

وتسمع دون استجابة، وبدا أن عناد تحكم في العقل، وأن غرور القوة وآخذ أصحابه إلى منتهاه.

كان الموعد المقرر لبدء خطة غزو العراق آخر ضوء من يوم ٢٠ من مارس ٢٠٠٣، ومع ذلك فإن الرئيس بوش وقع أمرا رئاسيا بقتل صدام حسين بضربة عاجلة، ولو أدى الأمر إلى استباق ساعة الصفر. وقال الرئيس بوش وهو يُوقع الأمر الرئاسي بالقتل المسبق:

"إن صاروخا واحدا يقتل هذا الرجل الآن كفيل بأن يوفر حربا بأكملها"، وعاد يؤكد لنفسه: "أليس صحيحا أن طمأنه جيش كامل تساوي قتل رجل واحد؟". وأعطى جورج بوش موافقته، وكذلك بدأت ضربه الحرب الافتتاحية قبل موعدها المقرر بأربع وعشرين ساعة، والأمل أن يُقتل صدام حسين، بحكمه أن "قتل رجل واحد يطمئن جيشا كاملا".

ولم تمض أيام الاحتلال حتى كانت قوات الغزو في موقف يسمح لها برؤية الحقائق كاملة، مكشوفة على الأرض، وأول الحقائق أن جميع الذرائع القانونية والأخلاقية التي دفعت بها إلى الغزو غير صحيح، بل إن القائلين بها كانوا أول من يعرف أنها كذلك غير صحيحة:

- ليست هناك أسلحة دمار شامل (نووية أو كيماوية أو بيولوجية).

- ليست للنظام الذي سقط في العراق إمكانية من أي نوع لتهديد الولايات المتحدة (أو أوروبا أو جيرانه) في ظرف ٤٥ دقيقة.

- ليست للنظام العراقي صلة بتنظيم القاعدة (وبالتالي بما جرى يوم ١١ من سبتمبر ٢٠٠١).

- وأسوأ من ذلك فإن الشعب العراقي لا يبدو سعيدا بهذه القوات التي جاءت لكي تحرره.

إن الإمبراطورية الأمريكية عند ذروة علوها ـ تصرفت بثقافة تجربتها الأولى مع الهنود الحُمر بعد أن تمكنت من قتل "عُدي" و"قصي" نجلي الرئيس العراقي

obeikan.com

السابق، وتصرفت كما كان يفعل قواد جماعات المهاجرين الزاحفين إلى قلب القارة الأمريكية في القرن الثامن عشر ـ أي أن قوات الإمبراطورية الأمريكية أوائل القرن الحادي والعشرين أرادت أن تثبت للهنود الحُمر على الناحية الأخرى من النهر أن الزعيم الكبير قتل، وها هي جثته على ظهر حصانه تعود إليهم ليروا بأنفسهم ويتحققوا. وتكرر المشهد بعد قرون، لأن الموروث الثقافي لديه فرصة الكمون حتى تستدعيه المستجدات، فإذا هو يعيد نفسه على المثال الذي تشكل به ابتداءً[١١].

يستعرض ويليام بلوم[١٢]، المحفزات الأكثر قابلية للتصديق وراء تحرك واشنطن في حربها على العراق كما يلي:

١ ـ توسيع الإمبراطورية الأمريكية: إضافة المزيد من القواعد العسكرية ومحطات التجسس الاتصالية على حقيبة البنتاجون، وإنشاء مركز قيادي يتيح مراقبة بقية دول الشرق الأوسط، والتحكم فيها، وترهيبها بشكل أفضل.

٢ ـ **المثالية:** إعادة تصنيع أصوليّي المافيا الإمبرياليين للعالم وفقا لصورة أمريكا، مع الالتزام بالاقتصاد الحر، والإيمان بنظام سياسي مستخلص من الكتب المدرسية الثانوية الأمريكية، والمعتمد على اليهودية والمسيحية كعناصر أساسية.

٣ ـ **النفط:** لبسط سيطرة كاملة على موارد العراق الشاسعة، في ظل وجود النفط السعودي والإيراني في الجوار، دون أي دفاع، وهكذا تُجرد منظمة الدول المصدرة للنفط من استقلاليتها عن واشنطن، وتكف عن التفكير في إبدال الدولار باليورو كعملتها الرسمية في مجال النفط، بما أن العراق قد اختفى، وسوف تفكر أوروبا المعتمدة على النفط مليا قبل تحدي سياسات واشنطن، كما يمكن أن تتباطأ وتيرة انبعاث الاتحاد الأوروبي كقوة عظمى منافسة.

٤ـ **العولمة:** ما إن يتم بسط الأمن النسبي على الأرض، والشعب والمؤسسات، حتى تبدأ الشركات المتخطية الحدود القومية بالزحف نحو العراق، وتستعد لخصخصة كل شيء بأسعار هابطة، يتبعها فورا صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وبقية المبتزّين الماليين الدوليين.

٥ ـ **صناعة الأسلحة:** كما في كلّ الحروب الأمريكية غير المتناهية، سرعان ما يحقق المصنعّون العسكريون أرباحا خيالية، ثم يقدمون مساهماتهم السياسية السّخية، ملهمين قادة واشنطن بمواصلة الحرب، لاسيما وأن كل حرب هي فرص لاختبار الأسلحة الجديدة، وتوزيع العقود لإعادة بناء الدولة التي تدمرت للتوّ. وكعلاوة إضافية، حين يتقاعد موظفو البنتاجون، فإن الوظائف تكون بانتظارهم في هذه الشركات نفسها.

٦ ـ **إسرائيل:** أي الأشخاص الذين كانوا يدفعون بوش إلى شن الحرب، بما في ذلك المحاربين المخضرمين المناصرين لإسرائيل، كريتشارد بيرل، وبول وولفويتز، ودوغلاس فايث الذين أيّدوا، إلى جانب بقية جماعة الضغط الإسرائيلية الأمريكية القوية، سحق عدو إسرائيل اللّدود، العراق، طيلة سنوات. بالإضافة إلى ذلك، يمكن تحويل مياه العراق الغزيرة للتخفيف عن إسرائيل عطش، وتجديد خط أنابيب نفطية قديم بين العراق وإسرائيل.

في أي حال، لا يبرر عزل صدام حسين الهجوم الأمريكي الضاري، حتى وأن كانت واشنطن قد تأثرت بشروره فعليا وأخلاقيا. ففي أي عالم قد نعيش لو بات في إمكان أي دولة أن تجتاح دولة أخرى لمجرد أنها غير معجبة بقائدها؟ لقد كان الضّرر الذي لحق بالقانون الدولي والأمم المتحدة عظيم الشأن.